القصص

صور من هوميروس

١٢ - حروب طَرْوَادَة

بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

إن يكن قد أصاب الطرواديين قَرْحٌ فقد أصاب الهيلانيين قَرحٌ مثله

ذلك أنه ما كاد يغادر نيتيوما حومة الوغى ، صادعاً بأمر الإله الأكبر ، حتى أفاق الطرواديون وأحلافهم ، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الحومة مارس وزبانيته

أفاق الطرواديون إذن ، وصحا زيوس من رُقْية حيرا ، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئي أخيل ، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر الذي ملأ جفنيه ، وغلّق سمعه ، وأطلق أيديهم في أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان ! !

وما هي إلا أن لم الطرواديون شعثهم ، ورتقوا فتقهم ، حتى استطاعوا أن يعيدوا الزحف ، ويأخذوا أعداءهم المزهوين بنشوة النصر ، على غرة منهم ؛ ويطّلع سيد الأولمب من ذروة جبل إيدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس ، ثم يسلط عليهم سواعقه ، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع ، ليس له من دونه دافع ، إلا أن يُثأر لابن ذيتيس ، حبيبة القلب ... ومنية النفس !

وفزع أوليسيز إلى رمحه ...

وأجاممنون إلى سيفه ...

وديوميد إلى صَمْدته ...

وأجاكس إلى جُرازه ...

وفزع الجنود الى أسلحتهم يشحذونها ، والى دروعهم يلبسونها ، والى الجياد الصافنات يعتطون صهواتها .... والى الواقمة فيخوضون غُبارها ، ويثيرون عجاجتها ...

ولكن ! ... بلا جدوى ... !

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر ؛ وضُيّق عليهم حتى نظروا الى الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا ؛ ورأوا الى هكتور كالأسد الهصور يزلزل الساحة بزئيره ، ويثير في قلوب جنوده الحمية باقدامه ، وأينما توجه توجه الموت في ركابه ، وقطرت المنية من سنان سيفه ، وانقدح الشرر من حوافر خيله ، وتناثر الزبد من أشداقها ، فيكون سُمّاً في قلوب الهيلانيين

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجئ ، وشاعت الخيلاء في أعطافهم حين أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثراً بجراحه ، وأجاممنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد ، وديوميد محمولاً الى سفينته كمن يجود بروحه ، وأجاكس العظيم يولي دبره غير متحرّف لقتال .... فأوقدوا مشاعلهم ، وأججوا نيرانهم ، واعتزموا اضرامها في أساطيل الأعداء ، ليكفوا طروادة شرورهم ، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم ، وليتم نصرهم ...

وهنا ... ... ؟ ! !

انتفض پتروكلوس ! پتركلوس الكبير ، صديق أخيل ، وأعز الناس عليه ، وجذوة الحماسة المتأججة في ضلوع الميرميدون !

لقد نظر پتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم الى البحر فتلقى بنفسها فيه ، ثم يسبح منهم من يسبح الى الأسطول الحزين الذي بدا عليه كأنه يرثي لرجاله ، ويبكي على أبطاله ، ثم يغرق منهم خلق كثير ، فيبتلعهم اليم ... الى غير عود ... ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين ... ثم نظر أخيرا فرأى الى حَمَلة المشاعل والنيران يزحفون إلباً فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية ، لو أعملوا منجنيقهم في قذفها لأصبح الأمر

...ير الأمر ، ولأتوا على آخر قوة لبنى قومه ، ولباء بنو قومه ...مثل العظيم ! ولعاد الميرميدون كاسفى البال يحملون الى هيلاس ... مصارع اخوانهم ، الذين تخلى عنهم أخيل وجنوده وهم ...مى ما يكونون حاجة اليهم ؛ ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى ...سفينة التى بينه وبين أجاممنون حتى فى هذه الساعة العصيبة ، ...يهرس لنصرة اخوانه اليونانيين ، وليدفع عنهم هذا البلاء الذى ...حزبهم ، وليرد عنهم عادية هذه الكلاب التى تنوشهم ...وتمزق صفوفهم ....

ورأى بتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون الى وطنهم ...رص نجاتهم من نيران الطرواديين ، يجرون أذيال الخيبة ، ...يتدثرون أكفان الفشل ، فثارت فى قلبه نخوة الجندى الباسل ، ...واشتعلت فى أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته ...التى يملأ بها السهل والجبل ، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه ...الجموع الميلانية التى تتدافع الى البحر .... فكأنما تفر من موت الى موت ، وتنجو من حمام الى حمام .... فذهب من ...وره الى أخيل ، واقتحم بابه غير مستأذن ؛ وقال :

« أخيل ! »

« فتى هيلاس وغوثها فى كل رَوْع ! »

« يا سليل الآلهة ، المترفع عن الدنايا ! »

« أرأيت ؟ ! . . . »

« ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الميلانيين باءوا بالهزيمة ، ...لم ينهض أخيل لنصرتهم ؟ وماذا نحمل إلى هيلاس إذا أبنا غداً ...من أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة ؟ وكيف نلقى الأمهات ...المعولات على أبنائهن ؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذى بدت بوادره ، وأخيل العظيم لا يحرك ساكناً ؟ وكيف نتقى نقمة الشعب الذى ندبنا لهذا الأمر إذا خُنّا أمانته ، وبددنا ثقته ، وحطمنا آماله ؟ وأين ...ذهب الشهرة الطويلة التى أحسبنا خدعنا بطراوة العيش فيها والأحاديث المعسولة عنها ؟ »

« أخيل ! »

« بل فكر معى إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة فى دمائنا ، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم ، وتحرق سفنه ، ثم لا تعتزم غزو هيلاس العزيزة ، لتثأر لهذه السنين السوداء التى أذقناهم طوالها رهق الحياة وخيانة العيش ! ! »

« ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة ، وأنى له جيش بعد هذا الجيش المُراع ، ومن لنا بأسطول ينو له الموج ، وتذل لعزته البحار ؟ »

« أخيل ! »

« انظر إلى الميرميدون تكاد تقتلهم الخُنْقَةُ على هذه البلادة التى أخمدت سورة الحرب فى نفوسهم ، وأطفأت جذوة البطولة فى قلوبهم ... انظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم ، وليلقوا على هكتور درساً فى النزال لا ينساه آخر الحياة ! »

« مالك لا يحركك هذا اللظى يا أخيل ؟! إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم ، ويدفنون سخائمهم ، ولا يبالون ألف متمسّف أفاق مثل أجاممنون ! إن هذا يوم هو كله للوطن من دون أيام الدهر جميعاً ، فاذا أفلتت فرصته من أيدينا ، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدى الهيلانيين جميعاً ؛ ولن يقال فى سبب ذلك إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصرة الوطن ، وفى سبيل إشباع شهوة الخصومة قاصَ بالوطن ، وأبناء الوطن ، ومستقبل الوطن ! .. »

« إنه يافتى هيلاس ، وحامى ذمارها إذا اشتد بها الكرب ! »

« مالك نصمت هكذا كأنك تسمع إلى ألف قرن تناديك ، وتضع ثقتها فيك ؟ ! »

« أنا زعيم لك يا فتى هيلاس ، أن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرّة عليهم إذا رأوا خوذتك التى تكسف بلألائها شمس الضحى ، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التى تزين ذؤابتها ! »

« أخيل ! »

رد على أعز الناس عليك ، فالظرف أحرج من المطل ، وأقصر من هذا الصمت ! والساعة مفزعة مروعة ، وإخواننا فى الوطن والآلهة يصرخون ويموتون !

« أخيل ! »

إن كان يعز عليك أن تحنث فى عزمتك التى عزمت ، فأذن لى أن ألبس خوذتك ، وأمتشق سيفك ، وأحل فى دروعك السوابغ ، ثم أسوق الميرميدون باسمك ، فأرد عادية القوم ، وأجير

إخواننا الهيلانيين ! ... ...

وكان بتروكلوس يكلم أخيل وكأنما كان وحى السماء يتنزّل على قلب البطل ، بلاغةً وحرارةً وقوةَ إيمان وثباتَ يقين ، ونَفَساً تجيش بالحب وأقدس الحب لوطن مصاب في أبطاله ، منقوص في عزائم بنيه ، يتلفّت من خلف البحار ، يرى ماذا يصنع أخيل في هذا الروع ، وجنوده الميرميدون !!

وهب أخيل من جلسته الخاملة ، وأخذ يَدَىْ بتروكلوس في كلتا يديه ، وطبع على جبينه المرتجف قبلةً مهر بها صك التضحية في سبيل الوطن الشقى ، وقال لصديقه :

« بتروكلوس ! أخى ! يا أعز جنودى عَلَىّ !

« أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب ، فلا ! ولكنى آذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد ، ما دمت تؤثر صالح الوطن ، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين »

بتروكلوس ! لا يَدُرْ بخلدك يا صديقى الكريم أنني انتويت أن أغضب غضبةً لا انتهاء لها ؛ ولكنني أمرت أن أنتظر حكم السماء بيني وبين خصمى الذى لم يتورع أن يهتك أمر السماء ، فيسلبنى ثمرة خلعها ربحى على ، وقدمها لى جيش بأسره . . . هلم يا بتروكلوس فالبس دروعى واسبغ عليك لأمتى ، وشرف خوذتى بجبينك ، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون ، وليبرهنوا لنا كر الجيل أننا سبب مجده وخير جنده ، وذخيرته كلما حزبه كرب ، أو ألم به خطب

« هلم . . . . . هلم . . . . . »

* * *

وانطلق أخيل فصاح بجنوده ، فهرعوا اليه في سُفُنه الخمسين ، الراسية بمعزل من سائر الأسطول الهيلانى . . . . وكم كان رائعاً أن يتحرك أسطول أخيل ، في أحرج ساعةٍ مرت بهذا الجيش المغير ، الذى وقع فريسة كله في قبضة الطروادين ! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل ؛ وكأنها الخلاص من الموت الذى يلاحقهم ، والمنايا التى ترقص فوق هاماتهم ، وهى مع ذلك فيما خُيل لهم تزورّ عنهم ، وتشيح عن نجدتهم ، لأنهم لؤموا مع زعيمها ، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصاً له !

أقلع أسطول أخيل ، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه ، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن ، حين يهبطون إلى الشاطىء من كبسة الصفوف الظافرة ، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين

وما هى إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة ، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه ، وكأنهم كِسَف من العذاب أرسله نبتيون ، رب البحار ، من أعماق اليم ليقذف بها في قلوب الطرواديين !

وطفق أخيل يجيشهم ، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم ؛ فكان على رأس الجحفل الأول البطل الهلاحل ، والقائد المناضل ، منستيوس بن سبرخيوس ، ابن السماء وصاحب العزة القعساء . ؟ . وعقد لواء الجحفل الثانى لابن هرمز المقدام ، الفتى يودوروس ، الذى طالما كان جزعاً في فؤاد الردى ، ووجلاً في قلوب المنايا !! . ووضع على رأس الجيش الثالث القائد بيزاندر ، ابن ميالوس ، صفى الآلهة وهبة الأولمب . وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس ، الذى آثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس ، يفاوضون في الصلح من قبل أجاممنون ؛ أما الجيش الخامس فقد عقدت رايته لابن ليرسيز ، ألكميدون المظفر ، أخى النمرات وصاحب الثارات

أما بتروكلوس ! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل ، يجرها جواداه الأشهبان ، إكسانثوس وبليوس ، أعز خيل زفيروس ، وأحب دوابه اليه ، ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع في النفوس : فهذى خوذة أخيل تتألق فوق هامته ، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركاناً يقذف الحمم . وهذى دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين ، كأنها لبدة نبتت فوق حيد جبل شامخ ينطح السماء برَوْقيه

وتقدم أخيل فصافحه ، ومنحه شرف القيادة العامة ، وخطب الجنود فقال :

« إيه أيها الميرميدون ! هذا يومكم !

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة ،وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض ؛ ولقد كنتم تملونني فتقسمون على في أنى احتجزتكم هنا ووقفت في سبيلكم دون نصرة إخوانكم ، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وانقذوا أجاممنون مما حاق به ، ولا يجرمنكم شنآنه ألا تغيثوه ، أغيثوه فتصره عزلكم ؛ شد الآلهة أزركم ، وباركت

الأرباب أسيافكم ، وأحيت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه ؛ سيروا على بركة زيوس ، وفى حمى حيرا ، وعين ميزفا تكلؤكم »

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم ، ورجف الوادي رجفة أجفل منها السهل والجبل ؛ إذ كانوا ينسابون فلا يربضون على شيء ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة (١) ، ولا يعوقهم جُرُف ، وتسجد من دونهم حزون الأرض وآكامها

وانتظم خميسهم (٢) ؛ فبرز القلب تتبعه الميمنة ، تلقاءها الميسرة ؛ وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين

ونفخ في البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين ، فبدّلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت ، وانطفأ في أبصارهم بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمة ؛ ونظروا فرأوا تلك الخوذة الذهبية التي طال عهدهم بها ، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها : خوذة أخيل التي كانت تكفي وحدها لألقاء الرعب في قلوب الطرواديين ، وقذف الوجل في نفس كل منازل أو مناجز

وتصايح بعضهم ببعض : « يا للهول ياصاح ! لقد أقبل أخيل ! النجاء النجاء ! أين كان الطاغية ؟ . . . . . . » ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضاً : « أيها الطرواديون ! خذوا حذركم ! الفرار الفرار من الداهية الجبار ! لقد قطع الميرميدون رجعتنا ! دعوا الميلانيين وانشدوا خلاصكم ، إلى البوابة العظمى ! أيها القاتلون ! لا تزحموا الجسر ! القهقرى القهقرى ! ... ... » إلى آخر هذا النداءات المزعجة الواجفة . . .

ولكن أين يهرب الطرواديون من بتروكليس ؟ !

لقد كان إكسانتوس وبليوس — الجوادان الكريمان — زوبعتين مُشَعَّبتين ، تثيران الرهج وتعقدان العجاجة ، في جميع أنحاء الميدان : في القلب ، في الميسرة ، في الميمنة ، في الجناح الأيسر ، في الجناح الأيمن . . . . . بل . . . في السماء ! !

وكانت الشمس ، شمس طروادة الملتهبة ، تعكس أضواءها على خوذة أخيل ، فتذيب أفئدة الطرواديين !

واختلط نظام القوم ، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر الكبير ، الذي نصبوه فوق الخندق حول اليوم . ولم يحتملهم ، فهوى بالألوف المؤلفة في جوف الخندق ؛ ولكن المؤخرة ، وكانت غالبية الجيش ، لم تنتبه لما حل بأكثر المقدمة وكذلك تدافعت لا تلوى على شيء ، فجعلت من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى . . . طروادة ! !

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها ، ثم جال بتروكلوس جولة هنا وجولة هناك ، يبحث عن أصحاب النداءات المنكرة التي كانت تملأ الساحة شماتة بالميلانيين ، منذ لحظات ، فلقي منهم برنوس فصرعه ، ثم أستور فجندله ، ثم اريالوس فأرسل به الى الجحيم ، وعشرات غيرهم من بني طروادة النجب

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور ؛ فسعى اليه وضيق الحصار عليه ، وأرسل اليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته ؛ ولكن ، يالهكتور ! ! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحة بتروكلوس ، فألهب جياده الضاريات فمدت به وأنقذته من قتلة محققة وموت مبين

ولشد ما شده بتروكلوس إذ رأى الى جانبه فتى هيلاس ، ومحاربها الصنديد أجاكس ، يقود فلول الميلانيين ، ويقتحم بهم الحلبة كرة أخرى ! ؟ غير مبال بجروحه التي يتدفق من أفواهها الدم صبيباً

وكم كان سرور الميلانيين عظيما حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأمجاد يذودون عنهم ، ويردون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم ! ؟

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون ، وساربيدون (١) البطل الطروادي الكبير ، أدت إلى مبارزة دامية ، وانتهت إلى فجيعة طروادة في أشجع فتيانها بعد هكتور ! إذ شكه بتروكلوس شكة جرعته غصة الردى ، وقربت اليه ورد الحِمام ! ! . . . . . .

وانكشفت غمة الميلانيين

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر ، ودفعوه غالياً وعزيزاً ! ! يا للهول !

لقد قُتِل بتروكلوس ! !

فمن لك بعده يا أخيل ! !

(لها بقية) — دريني خشبة

(١) أرض لابة أي كثيرة الحجارة والنؤى

(٢) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق : الميمنة والميسرة ، والجناحان ، والقلب — فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الأغريق ؟

(١) تأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه الصور لايراد ملاحاة ساربيدون وهي من أروع صور الالياذة (الكتاب السادس عشر)

٣ـ رحلة الى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

وللقوم عادات عجيبة فى الأفراح ، فاذا ماتم الاتفاق على المهر وقدره ستة ريالات (ومن هنا جاءت الأغنية القديمة : بستة ريال بابا جوزنى) تعهد به الزوج على أن يدفع عند حلول أحد الأجلين الموت أو الطلاق ، ثم يقدم قطعاً من القماش ، وفى ليلة الزفاف يدعى الأحباب إلى الطعام ، ويطوف عليهم خلال ذلك كشف بأسمائهم ، فيتبرع كل منهم بما تجود به نفسه ، وقد شهدت فرحاً اكتتب المدعوون فيه بأربعين جنيهاً ، وذلك الاكتتاب يعد ديناً عليه يؤديه كلما دعى فى أفراحهم ؛ وجل تكاليف الفرح تقع على عاتق أهل الزوجة ؛ وفى ليلة (الحنة) تمشط رأس العروس فى حفل كبير يحضره نساء من الفريقين وتلبس حلى ثقيلة من فضة ، تكاد تغطى جسمها كله ، والعجيب أنها مقترضة من الغير فلا يجوز لها أن تلبس حليها الخاصة إلا بعد الزفاف ، وتلك الحلى المقترضة ترد لأصحابها بعد الزفاف بأيام ؛ وفى ليلة الزفاف يقوم بين الفريقين شبه شجار ومشادة يشترك فيها نساء الفريقين ، طائفة تحاول أخذ العروس بالقوة ، والأخرى تحاول منعها ، وعند بزوغ الفجر تخطفها إحدى السيدات وتجرى بها الى بيت الزوج ، وبعد أن يدخل الزوج بها يظل الثلاثة الأيام الأولى نافراً من أهله وصحبه ، يخرج قبيل الشمس ويظل فى الحقول الى المساء لكيلا يراه أحد منهم ، وفى ذلك شيء من التأدب والاحتشام لا بد منه ! ثم يعد أهل العروس صحافاً من طعام (الرقاق) أو من العدس والحمص يسمونه (أطقاع) يحمل الى بيت الزوج ، ويحاول أهل الفريقين أن يتخاطفوه فى الطريق ، فان وصل الى الزوج سالماً أكله وإلا اتهمه الناس فى الطريق تيمناً . وفى صباح اليوم الأول من الزفاف (الصباحية) يعد أهل الزوج (شجرة العرس) وهى من جمار (لباب) نخلة طيبة تخرط فى شكل أنيق وفى طول العروس ثم تزين بالأعلام وسائر أنواع الفاكهة ، وتعلق عليها الحلى الفضية التى كانت قد اقترضتها الفتاة ، ثم تحمل تلك الشجرة وسط حفل يكاد يحضره كل أهل البلدة ، ويطاف بها فى الطرق إلى أن تصل بيت العروس ، وهناك تقوم وسط البيت أياماً وكأنها عروس قامت تعوضهم عن فتاتهم ، وإذا ما قاربت اليبس قطعت وأكل منها المحبون ، وبخاصة الفتيات اللواتى يرغبن فى الزواج تيمناً وتبركا ؛ وإذا ما رزق الزوجان مولوداً سارع المحبون بتقديم قطع من قماش أبيض إن كان المولود ذكراً أو قماش ملون إن كانت أنثى ، وقد تبلغ تلك القطع بضع مئات تسد حاجة الطفل من الملابس شطراً كبيرا من عمره . وإذا مات الزوج عكفت الأرملة فى معزل من الناس جميعاً لتقضى عدتها وقدرها ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وفى صبيحة اليوم الأخير تخرج لزيارة قبر زوجها ، والويل لمن لاقاها فى طريقه إذ ينصب عليه نحسها ، لذلك ينبه الناس بعضهم بعضاً ألا يخرجوا فى الصباح لأن (القولة) ستكون فى طريقها إلى المقابر ؛ وقد يطوف بالنبأ مناد ينبه الناس ، وبعد عودتها تقصد إحدى العيون (عين طموس) فتغتسل فيها ، فان اتفق أن لاقاها شخص أصابه نحسها كله ، وإلا استأجر أهلها فقيراً يلقاها ليرفع عنها وصمة النحس ، وبعد ذلك تسير حرة ولا ضير على من لاقاها أو تحدث إليها أو رغب فى زواجها . وعادة الندب ولطم الخدود شائعة لديهم ، ومقابرهم متجاورة ، إلا من اشتغل بالذبح (القصابون) ، أو بعصر الزيتون ، فهؤلاء يدفنون فى أماكن نائية ، فكأنهم من المنبوذين

ومن أشهى الأطعمة لديهم (لِمْصَفَّة) وهى مزيج من القرع والطماطم واللحم والزيت ، ثم (إنْقطه) وهى فطير بالزيت والعجوة ، وكل غذائهم بالزيت ، ولا يكادون يعرفون (السمن) قط ؛ وأحب المشروبات عندهم (اللقبى) يتخذ من عصارة لباب النخيل ، وذلك بأن يكشف عن لباب النخلة وتجرح وتوضع تحتها آنية يتجمع فيها السائل ، وقد تدر النخلة منه صفيحة كبيرة (٤ جالون) فى اليوم الواحد ، وتظل تعطى النخلة هذا القدر زهاء نصف عام ، ثم تموت ، لذلك تراهم لا يأخذون من النخيل الجيد إلا القليل كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على حال الشجرة فيضنيها . وطعم ذلك الشراب وهو طازج حلو لذيذ ،

لكنه إذا ترك قليلا تخمر فأصبح مسكراً قوياً ، وهم يشربونه متخمراً ، وبعضهم يدمن تناوله

ويدهشني تقاعد الناس هناك عن استغلال موارد تلك الواحة الغنية ، فالأرض المزروعة محدودة جداً وهم لا يحاولون زيادتها رغم وفرة المياه وسهولة الري فيها ، وحتى البساتين لا تلق من عنايتهم إلا القليل رغم أن المنطقة جد صالحة لسائر أنواع الفاكهة والزيتون والحبوب ، وقد تمثل الفرق أمامي مجسماً بين الناس هنا وبين أهل (الواحات الخارجة) فهم هناك يستنبتون الحبوب وبخاصة الأرز والقمح والشعير بكثرة هائلة ، وينتجون غلتين في الأرض الواحدة كل عام ، ويعنون بتسميدها ولا يفتأون يوسعون المساحة المزروعة يوماً بعد يوم وينقبون عن ينابيع جديدة ؛ أما أهل سيوة فمتواكلون قانعون حتى ملاك الأراضي يتركونها لطبقة العمال (الزجالين) ولا يكاد المالك يزور بستانه مرة كل أعوام . وعندي أن الحكومة لو أوفدت طائفة من (الصعايدة) وأقطعتهم مساحات في مجاورة الينابيع في سيوه لكان لتلك الواحة شأن آخر في الانتاج خصوصاً وأن الطرق الممهدة الجيدة تربطها بالسلوم وبمطروح والسيارات تقطعها في أقل من عشر ساعات

ثم نودع سيوه عائدين إلى مطروح ، ثم أقلتنا إحدى الطوافات وكانت أجل البواخر وهي (الأميرة فوزية) إلى السلوم فقضينا يوماً كاملاً ونحن نسير إزاء السواحل المصرية الوطيئة . وفي باكورة الصباح دخلنا خليج السلوم الذي حاكى (الحويصلة) في تقوسه ورسونا على شاطئه الرملي فأشرفت الجبال من ورائه في طوق هائل أظهر لنا متعة الموقع من الناحية العسكرية ؛ وتلك الجبال هي حافة الهضبة الصحراوية الداخلية التي تؤدي إلى الحدود الطليانية وارتفاعها ١٩٠ متراً . وما كادت الباخرة ترسو حتى تهافت أهل البلدة عليها في جوع لا حصر لها من سائر الطبقات ، وكانت تبدو عليهم علائم الفرح والسرور لأنها تحمل اليهم مؤونتهم من الطعام والخضر والفاكهة وحتى الماء لأن موارد ماء الشرب هناك معدومة تقريباً ، فالباخرة تملأ لهم مستودع الماء الذي منه توزع على الموظفين يومياً بمعدل (صفيحة واحدة) لكل فرد ، وإن اعوزهم الماء بعد ذلك أتموا حاجتهم من المياه المكثفة من البحر وقد قامت الآلة المكثفة (كندنسر) على حافة الماء . على أن ماءها رغم نقاوته غير صحي لخلوه من المواد اللازمة للجسم التي لا يخلو منها ماء الشرب عادة

ويوم وصول الباخرة عندهم هو يوم (الملوخية) ، لأن الناس جميعاً يطبخونها لأنها أسرع الخضر تعرضاً للبيبس والعطب ، ولقد خلقت الباخرة جو عمل وحركة غير عاديين وسط تلك الجهات الساكنة ، فقد تهافتت سيارات النقل والحمالون وبدأت العربات المعلقة الهوائية (Cable Cars) تشحن حاجات الجيش المعسكر فوق المرتفعات ، فترى العربات تجري معلقة على الأسلاك إلى قمة الجبل ثم تعود فارغة ، وحتى زوارق صيد الاسفنج تبتاع ماء الشرب لما من الطوافة ؛ والمنطقة غنية جدا بالأسفنج الجيد وأصحاب امتياز صيده طائفة من اليونانيين يفدون من بلادهم في موسم الصيد ومعهم زوارقهم ، وهم لا يفهمون من العربية شيئاً قط . أما أهل السلوم فمن فقراء الأعراب يعيشون عالة على الموظفين او خدماً لهم ، وترى خيامهم القليلة مبعثرة في سفح الجبل ، وهم يحصلون على مائهم العذب بطريقة عجيبة بسيطة ، فهم يحفرون الرمل بجوار البحر الى عمق نصف متر فينز الماء ويملأ الحفرة ماء لا بأس بمذاقه ، وهم في فقر مدقع وبؤس مبيد خصوصاً بعد أن اجدبت منابت الشعير إجداباً تاماً هذا العام . ولقد أثر ذلك في حالتهم الصحية والخلقية تأثيراً سيئاً ؛ وتلك فئة جديرة بعطف ذوي البر ، وقد تبرعت لهم الحكومة ببعض الغلال ويا حبذا لو ضاعفت احسانها لحفظت طائفة من سكان مصر من أن يلقوا بأنفسهم الى أحضان الطليان في حدود طرابلس مستسلمين كأسرى البال ؛ ونساء العرب هناك سافرات لهن جمالهن الخاص في أرديتهن الحمراء ، وعند زواج إحداهن يجتمع الناس لتقدير المهر ويبدأ بنحو خمسين جنيهاً ، ثم لا يفتأ يتدخل شيخ منهم ويقول (وعشان خاطري) فينزل المهر إلى أربعين . ثم إلى ثلاثين ، وهكذا حتى ينزل الى خمسة جنيهات . ويكاد الفرح يقصر على حفلات الرقص ، ولهم حركات في غاية الرشاقة والخفة ، وجل الرقص يوقع وفق تصفيق الجماهير ؛ ويغلب أن تكون الراقصة ويسمونها الحجالة من الأوانس اللاتي يرغبن في الزواج ، وهي ترقص وعلى وجهها قناع ، وليالي الفرح أربع ، وفي ليلة الزفاف تحمل العروس على محمل تحت هودج يسمونه (كرمود) ؛ ويمسك بالخطام الفتيات البكر تفاؤلاً ويقتدنها إلى بيت الزوج . ومن عاداتهم أن الفتاة إن طلبها أحد ذوي قرباها فضل على غيره حتى

ولو لم يكن كفؤاً لها ، وإن حصل مايخالف ذلك فرضت على المعتدى الدية التي يختلف قدرها باختلاف مكانة الفتاة

حدث مرة أن أجمل فتاة في قبيلة المعابدة هناك طلبها كل فتيان قبيلتها فرفضت لأنها كانت تحب فتى من قبيلة أخرى ، وذات ليلة دبر ذلك الفتى أمر اختطافها ، فكانت الدية ألف جنيه . والعجيب أن سائر رجال القبيلة لابد أن يتعاونوا على جمع تلك الدية ودفعها وإلا لحقهم العار ولزمهم الحق جميعاً ، وأنت إذا مررت على (خيشة) من خيامهم وحيتهم وجب أن تعرج لتشرب الشاى . ولا بد من تقديمه ثلاث مرات : الأولى شايها ثقيل أسود مر لا يوضع به سكر قط ، والثانية أخف منه وأحلى ، والثالثة يقدم شايها وكأنه العسل وغليه النعناع ، ويدور الساقي إلى اليمين مهما كان من أمر الجالسين ؛ وهم يدمنون الشاى إدماناً أثر على صحتهم ولو أنه أفاد من ناحية التطهير ضد بعض الأمراض .

وإذا اعتدى أحدهم على غيره وأصابه بسوء أرسل المصاب إلى (النَّطَّار) ، وهو يقابل الطبيب الشرعي عندنا لتقدير الدية ، وقوله نافذ على الجميع ، وتلك الدية تسمى (كبارة) ، والقاتل لا يقتل في عرفهم متى دفع الدية التي يقضي بها المحكمون ، وهي حوالي مائتي جنيه في العادة ، ويتعاون كل أغنياء القبيلة على دفعها

طفنا ببلدة السلوم فاذا بها قرية شبيهة بطروح في نظام بيوتها البيضاء الوطيئة ، على أنها تفوقها وحشة ، إذ يشعر الواحد فيها بأنه في معزل عن العالم . تسلقنا المرتفعات في طرق ليأتها من الأعاجيب ، وكلما علونا بدا مشهد خليج السلوم رائعاً بديعاً ، وفوق الهضبة زرنا المعسكر وتوابعه في أبنية بالحجارة ، فاخرة الانشاء ، لم أكد أصدق أنها أقيمت لجنودنا المصريين ، وهنا تعسكر أورطة مصرية بكامل رجالها ومعداتها ، وتشرف على الخليج إلى جانب المعسكر طابية قديمة أسسها عصمت التركي سنة ١٣٢٢ ، وعليها الطغراء العثمانية ، ويشغل القسم الأكبر منها اليوم السجن . ولقد أخذنا نشق تلك الصحارى المجاورة ، ومررنا ببعض الآبار الرومانية القديمة ، ومن أكبرها بئر وعرة نزلناها فاذا بها تجويف في الصخر الهائل ، له شعاب ممدودة تحت الأرض فاذا ما أمطرت السماء سال الماء إليها خلال فتحات ضيقة وترشحت أوساخه مع الرمال الراسبة واستقى منها الناس . ثم سرنا حتى وصلنا الحدود الطلبانية ، وهم يمدون على طولها أسلاكاً شائكة . وزرنا طابية

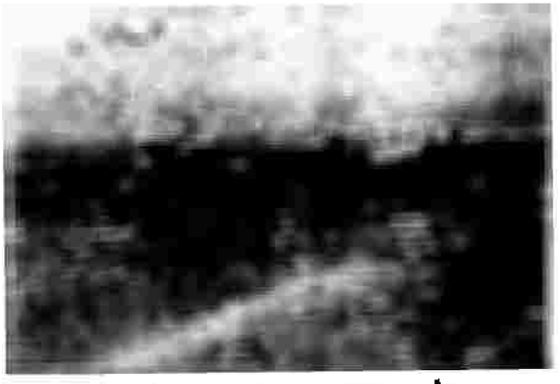

الأسلاك الشائكة على الحدود بين السلوم وطرابلس

(مساعد) التي كانت لهم وتنازلوا عنها لمصر عند تحديد التخوم بعد أن أخذوا هم جغبوب وما جاورها ، وتركوا لنا تلك الطابية ومسافة قدرها زهاء عشرة كيلو مترات حول السلوم . وعجبت جداً لما لم أجد من الاستعداد لدفع طوارئ الهجوم على تلك الناحية المكشوفة من حدودنا ، فعدد الجنود غير كاف ولم يزودوا من الأسلحة بشيء يدفع عنهم أذى ، وحتى معسكر المدفعية رأيته يضرب خيامه أسفل الخليج بعيداً عن المرتفعات ، لذلك يوجس الناس هناك خيفة هجوم العدو بين يوم وآخر . فهلا اهتمت وزارة حربيتنا بأمر تحصين ذلك الركن الهام من حدودنا فأمنتنا أخطاراً جسيمة وألقت شيئاً من مسئولية الدفاع عنا على عواتق أبنائنا المخلصين

قمت من السلوم عائداً إلى الاسكندرية في الطوافة ، وكان أجرها زهيداً جداً ، إذ للموظفين جميعاً أن يدفعوا ربع الأجر فقط ، والأجر الكامل للذهاب والاياب خمسة جنيهات في الدرجة الأولى ، وبتنا فيها ليلتين ، ثم دخلنا الاسكندرية في باكورة الصباح

محمد ثابت

انتظروا قريباً

الجزء الثالث من الشوقيات

للمرحوم أحمد شوقي بك

مكتبة النهضة المصرية